التل الكبير

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ نجيب محفوظ

كم هي كئيبة مقفرة بلدة التل الكبير ! ... لا أظن أنها تطيب لإنسان إلا إذا كان من أبنائها الذين لم تقع أعينهم على غيرها من البلدان ، ولكن ما كان أثقل وطأتها على سالم صابر الشاب المترف المدلل الذي عاش خمسة وعشرين عاماً في القاهرة ذات الأنوار والمسرات والحدائق ؛ وهو ما كان يرضى بهجر الملاهي وسباق الخيل وموائد القمار والصالات ... لولا أنه ذاق مر العطلة سبعة أعوام بعد حصوله على البكالوريا . فكان ينبغي له أن يفرح لفوزه بوظيفة كاتب بمأمورية الأوقاف ، وأن يحمل حقيبته راضياً — وهي أول مرة يحملها ووجهته غير الأسكندرية — ويمم شطر التل الكبير .

وقد وجم وانقبض صدره للنظرة الأولى ، وفاق ما رآه جميع ما تصوره خياله المترف من السوء والوحشة ... أحقاً أن البلدة تتلخص في هذا الطريق الملتوي الذي ينتظم مركز البوليس ودار المطافىء وبقالة فرج وبقالة مانولي ؟ ... أهذه البيوت القائمة على الجانبين التي تبدو في ألوان جدرانها الباهتة ونوافذها المتقاربة كالثكنات القديمة هي خير بيوت البلدة المهيأة خاصة لسكنى الموظفين ؟ ... أحقاً أن أجل مواضعها هو الموضع الذي تقوم به مقبرة الجنود الإنجليز الذين سقطوا قتلى في المعركة المشئومة التي انتهت باحتلال مصر ؟ كيف يعيش أهل هذه البلدة .. ألا يسمرون .. ألا يلهون .. ألا يقصفون ؟ .. هنا وا أسفاه قضي عليه أن يقيم إلى أجل غير مسمى لا يعلم مداه إلا الله ! ...

وعلى تفاهة البلدة تبين له لأول وهلة أن السكنى فيها من أشق الأمور ، وبدا له أن أصحاب البيوت يتوجسون خيفة من الأعزبين ويسيئون بهم الظنون. نعم سر لذلك سروراً خفياً ، واستبشر به خيراً ، وحسبه دليلاً محسوساً على وجود أثر لحواء في هذا المنفى الغريب ، ولكنه تعب طويلاً قبل أن يهتدي إلى مالك قبله بعد أن أخذ عليه المواثيق بالاستقامة ومجانبة الريب . . .

وفي اليوم الأول لاستلامه العمل وقع له حادث « حكومي » كان له أثر عظيم في حياته . فقد أدخل إلى حجرة يوجد بها أربعة موظفين ، وجلس إلى مكتب صغير رث الهيأة ؛ ومضى يقلب عينيه في الوجوه الغريبة ، وهو يعاني وحشة وارتباكاً ! ولم يدعه واحد منهم يستريح . . . فتقدم منه ورمى على مكتبه ملفاً بعنف ، وأمره أن ينسخ منه صفحة على وجه السرعة ! وبوغت الشاب مباغتة شديدة ، واستاء من عمل الرجل ولهجته ... فألقى عليه نظرة تأفف وازدراء . وكان قميئاً شاحب اللون ، مستدير العينين صغيرهما ، محدودب الظهر ، يثير منظره الكراهية ، وكان سالم مايزال ممتلئاً بروح الاستهتار. فقال له بتحد غريب :

— استرد ملفك فلن أنسخ منه شيئاً ...

وأحدث قوله موجة اضطراب عنيفة سرت من عيني الرجل المختلجتين إلى الرؤوس المنكبة على الأوراق فارتفعت في دهشة وحدقت أعينها في وجه الشاب الغاضب ثم تبادلت نظرات عجب وشماتة وجدت مرة أخرى عليه ثم ارتدت إلى انكبابها !

ولم يبس الرجل بكلمة ولا بدا على وجهه أي أثر للانفعال سوى اختلاج العينين ، واسترد ملفه في هدوء وعاد به إلى مكتبه

ولم يقنع سالم بما قال فأردف بصوت متهدج :

— قبل كل شيء ينبغي أن تتعلم كيف تخاطب الناس بأدب

ولم يعره الرجل أدنى التفات ولازم الصمت كأنه أصم أبكم !

وعلم سالم بعد ذلك أن ذلك الرجل هو الكاتب الأول في المأمورية وأنه يدعى أحمد علوان وقد ظن أن ما حدث سيكون حتماً فصل الخطاب بينهما ، ولكن خاب ظنه ، فقد اعتذر الرجل وأكد له أنه لم يقصد المساس بكرامته بتاتاً ، ومال إلى محادثته بدماع وبلاداع وأبدى له المودة والعطف ، وتقبل الشاب ذلك منه بقبول حسن في الظاهر ، ولكن قلبه لم يرتح إليه قط . وتناسى الحادث وكادت تغفر آثاره ، وانحصر هم سالم في مسألة واحدة هي كيف يمضي وقت فراغه الطويل ؟ كان الوقت يمر ثقيلاً كأنه محمول على سلحفاة عرجاء ، وكان المكان أجدب من أن يمده بتسلية تخفف عنه أهوال الملل ، فرمى به اليأس إلى بقالة مانولي وجعلها مجلسه المختار يأوي إليه ما بين العصر والمساء ، وربما ألح عليه الضيق فيبتاع زجاجة أوتار صغيرة وقطعة من الجبن الرومي ويمضي يرشف في حذر بعد أن يلقي نظرة خائفة على الطريق ونوافذ الدور المغلقة .

ثم ثبت له بعد قليل أن دكان مانولي يستطيع أن يقدم له ما هو أطيب من الجبن والأوتار ، وذلك أنه كان مطمئناً إلى مجلسه عصر يوم ، وإذا به ينتبه من سهوة على صوت رقيق يحادث مانولي ، والتفت بسرعة إلى مصدر الصوت فاستقرت عيناه على امرأة كانت ملفوفة بملاءة سوداء لا تخفي مقاطع جسمها الممتلىء ، وعلى وجهها برقع أسود تبدو منه عينان واسعتان في هالتين من كحل ، وخدان محمران يذكران بخدود عرائس الموالد ، وكانت هيئتها لا تدل على الصون أو الكرامة فأحس بارتياح وهمس بفرح : وأخيراً ! ولكن ما السبيل إلى مغازلة مثل هذه المرأة ؟ كيف يتقرب الإنسان إلى حسان التل الكبير ؟ وكيف يمكن اقتفاء أثرهن والبلد من الصغر والتزمت كأنه عين ترى أو يد تقبض على الأعناق ؟

وفتح الله عليه بكلمة فقال لمانولي وهو ما يزال يلتهم المرأة بعينيه :

— خذ بالك يا مونولي ! ...

فهز الخواجة رأسه بمكر وقال :

— هذه زبونة قديمة لا تحتاج إلى توصية من غريب مثلك !

ونظرت إليه المرأة بدهشة وقالت :

— غريب !

ثم أردفت وكأنها تنشد :

— يا ناس دنا غريب والغربة كيداني !

فقفز قلبه في صدره والتهب دمه بالأمل وقال لها :

— أنا غريب حقاً ! ولكن ليست الغربة بشر ما ابتليت به ! ...

فسألته بإنكار :

— وهل هناك ما هو شر من الغربة ؟

— هل يشكو (الجدى) من الغربة إذا وجد إلى جانبه (معزاته) ؟ ...

فنظرت المرأة إلى مانولى وقالت ضاحكة :

— دونك ومانولى فإنه كالمعزة سواء بسواء .

ولكن مانولى قال لها بغيظ :

— هو عاوز معزة مش مانولى . أنت لازم يفهم! أنا فاهمة يا مونولى ! ولكن أكلما جئتك طالبة جبناً تعطينى رجلاً ؟

فانتبه الشاب إلى قولها وسأل ينهكم :

— أيبيع لك رجلاً إذاً ؟

فقالت على الفور وهى تلحظه بخبث :

— صدقت ! ولكنه يبيع أحياناً خنازير !

وضحك الشاب وهم بالرد عليها . . . ولكن سمعت حركة فى الطريق . فأدار رأسه ... وتحركت المرأة ! خشى أن تفلت من بين يديه . فقال همساً :

— ألا تنتظرين ؟

فسألته وهى تسوى برقعها :

— ماذا تريد ؟

— أنسيت الجدى والمعزاة ؟ !

— قل لى : أين زريبتك ؟

— إنتظرى حتى يسترنا الظلام !

— أنا لا أنتظر أبداً .

— إنتظرى مرة ... الصبر طيب !

وبدا على المرأة الجد فقالت وهى تسير :

— إنتظر أنت ... سأعود !

هل تعود حقاً ؟ ... إنها أعجوبة فى التل الكبير هى سفيرة دولة الأنس العامرة بالقاهرة فى هذا البلد المجدب . لا تعد بلا شك جميلة ، ولكنها مرحة خفيفة ... بل هى امرأة وكفى ... ترى هل تعود ؟ لقد أيقظت قلبه وخياله وإحساسه فينبغى أن تعود وإلا تركته لشر الليالى وألم السهاد ... والتفت إلى مانولى وسأله باهتمام :

— هل تعود يا ترى ؟

فرفع الرجل حاجبيه الغليظين وقال :

— سلنى ماشئت عن جبن عن زبد عن سردين . ومع ذلك أسألك أنا ... لماذا لا تأتى ؟

نعم لماذا لا تأتى ؟.. وداخله شيء من الاطمئنان ولكنه لم يجد فتيلاً فى تهدئة الجزع المستولى على أعصابه . كان لا يفتأ ينظر إلى السماء يستصرخ الظلماء ويضرع إلى الليل العزيز ...

وكان مانولى يراقبه بعينين ساخرتين فى هدوء وعدم اكتراث ويلقى نظرة فاحصة — بين الحين والحين — على الطريق الذى أخذ يشمله الظلام ، وقد قال بعد فترة انتظار وهو يشير بيده :

— أنظر !

فنظر بسرعة ثم تنهد بارتياح عميق حين رأى شبحاً أسود يدنو منه فى خفة

كل شىء نائم والظلام يخفيه عن عيون البلدة الثاقبتين ، وهنا لك باب خلفى للبيت يقع فى الطريق الزراعى ، فجعل هدفه إليه وتبعته المرأة فى سكون

وفى صباح اليوم الثانى استطاع أن يذهب إلى الأمورية كعادته ولكنه كان مصدوع الرأس منهوك القوى فجلس إلى مكتبه جامداً لا يبدى حراكاً ، وافتقدت عيناه علوان أفندى فلم يجده فارتاح إلى غيابه واطمأن إلى خلوده ، ولكنه لم يلبث أن لاحظ أن زملاءه فى الحجرة يرمقونه بنظرة غريبة تدل على

الإنكار والدهشة ، فأحس بأن فى الجو شيئاً ، ترى ما عسى أن يكون ؟ .. وبلغت به المضايقة والاستياء أن هم بسؤالهم ولكنه عدل عن ذلك فى اللحظة الأخيرة ، وفتح دفتراً وانكب عليه متظاهراً بالاهتمام ولكنه لم يعمل شيئاً ، كان فكره لا ينفك متعلقاً بتلك الجماعة الغريبة الحساسة، ولم يترك فى هدوء ، فدلف إليه كاتب المستخدمين وقال له :

— سالم أفندى !

فرفع رأسه إليه وسأله :

— نعم ؟

— أحقاً ما يقولون ؟

— وماذا يقولون ؟

— ألا تعلم !

— لا علم لى بشىء . . . خير ؟ !

فتردد الرجل لحظة ثم سأله بصوت خافت :

— ماذا صنعت بالأمس ؟

فاضطرب قلبه ، واشتد به الذهول ، ولكنه تظاهر بالاستهانة . وقال بدهشة متكلفة :

— الأمس ! كان كأول أمس وككل أماسى مللاً ونوماً ! ...

فهز الرجل رأسه آسفاً وقال :

— كلا يا سالم أفندى ! ليس الليل الكبير بالذى يحفظ سراً أو يتستر على فضيحة ، وليست هذه المأمورية بالتى تتساهل فى أمثال هذه الهفوات .

— أى فضيحة ؟

— امرأة الأمس !

— أى امرأة ؟ . . ومن قال لك هذا ؟

— حامد أفندى :

وقام الشاب بسرعة عنيفة وذهب إلى مكتب كاتب الحسابات وسأله بغضب :

— ما هذا الذى تقوله يا حامد أفندى ؟

— فقال الرجل بخوف :

— أنا لم أفتر عليك كذباً ... هذا ما سمعت طه أفندى يقوله ...

وتحول الشاب حانقاً إلى كاتب الخازن ، وكان الرجل يستمع إلى الحديث فقال :

— معذرة يا سالم افندي أنا لم أقل ما قلت لأشنع بك ولكني سمعت وكيل المأمورية يحادث حضرة المأمور فى هذا الشأن صباح اليوم فأشفقت عليك من عواقبه وكاشفت الزملاء بما ساورنى . أنا آسف جداً يا سالم افندى . أنت شاب أحدث منا سناً ولكن كان ينبغى أن تأخذ حذرك ... فهذه الهفوة تعد هنا جريمة لا تغتفر !

فكاد سالم أن يجن من الغضب والحنق ، وعاد إلى مكتبه لا تبصر عيناه من الغيظ وقال وهو لا يدرى :

— أنا لا يهمنى ... فليفعلوا ما يشاؤون !

وجلس ساهماً قلقاً يسأل نفسه : كيف اشتهر أمره وكيف ذاعت فضيحته ؟ . . . كان الظلام شاملاً ... والليل ستاراً كثيفاً ... والطريق خالياً ، وكان يتقدمها بعدة أمتار ، وأتيا البيت من بابه الخلفى ، فهو على يقين من أن عيناً لم تره ، وقد غادرت المرأة البيت فى منتصف الليل والدنيا غارقة فى نوم عميق .. فمن أى منفذ تسربت الفضيحة على هذا الوجه المزرى ؟ ومن الذى سعى بها إلى الموظفين والرؤساء ؟ ..

وانتبه من أفكاره على صوت معروف يقول

« سلام عليكم » ، ورأي علوان افندى يدخل الحجرة مهرولاً . كان قلبه لا يرتاح إليه ، أما اليوم فهو يسيء به الظنون ولا يستطيع أن ينظر إلى وجهه من شدة المقت :

وتظاهر الرجل بالأسف وهو يقول :

سالم أفندى . الوكيل يريد أن تقابله . ما هذه الحكاية التى يتحدثون بها ؟ . إنى أعجب لهؤلاء الناس الذين يضعون أنوفهم فى كل شيء ! ... ، أهفوة شباب ؟ ... فلتكن ؛ ولكنها ليست بالشرك والله لا يغفر أن يشرك به ، ولكنه عز وجل يغفر ما دون ذلك ... أعوذ بالله ...

ولم يرض سالم أن يشمت به إنسان ؛ فتظاهر بالاستهانة وصار بخطوات ثابتة إلى مكتب الوكيل ، وإن كان قلبه يخفق بشدة وعنف ، ولم يمهله الرجل فابتدره قائلاً :

— ما هذا الفعل الشائن يا سالم أفندى ؟

فقال بصوت منخفض :

— لم أفعل شيئاً شائناً .

— ما فائدة الإنكار ؟.. لقد شاهدوك بأعينهم وأنت تسوق الفاجرة إلى بيتك ، ولا أخالك تجهل أن هذا المنكر يكفى لفصل أى موظف من خدمة المأمورية ...

— من هم الذين شاهدونى يا بك ؟

— أنت هنا لتجيب لا لتسأل .

— أليس من حقى أن أعرف ؟

— كلا . . . أنا واثق من المعلومات والمصادر على السواء .

— ولكن ...

— لا لكن ألبتة ... وينبغى أن تعلم أن خطاباً من أربعة أسطر يكفى لفصلك .

واضطر الشاب إلى الصمت قهراً ، وداخله الخوف ، ولاح له شبح اليأس يهم بخنق مستقبله الشاحب ويرده إلى المطلة البائسة التى لم يخلص منها إلا بشق الأنفس .

وعاد الوكيل يقول وهو يحدق فى عينيه :

— ولكن المأمور لا يرغب فى البطش بمستقبل شاب فى مقتبل العمر ، وهو يرى رأياً عسى أن ينقذ الموقف .

فتساءلت عينا الشاب الحائرتان ولم ينبس بكلمة فاستطرد الرجل :

— أطلب النقل إلى مأمورية قنا .

— قنا !

— نعم . وينبغى أن تطلب النقل بنفسك لأنه لا يستطيع أن يطلب نقلك بغير ذكر الأسباب . وهذا يضر بك ، فاذكر فى طلبك أنك اتفقت مع على علوان الكاتب بمأمورية قنا على تبادل النقل ... وعلينا الباقى . . .

على علوان ! لقد دوت كلمة (علوان) فى أذنه كالرصاص . هل يكون علوان هذا النغل فى قنا أخا الكاتب الأول ؟ ... إنه يشعر شعوراً قوياً بأن هذه هى الحقيقة . ترى هل أتى هذا الرأى عفواً ، أم بعد تدبير بليل ؟ هل يفسر هذا ذيوع فضيحة الغريب ؟ بل إنه يظن أنه يفسر وقوعها ! واحتدم الغيظ فى قلبه وتجمعت فى صدره ثورة جامحة ولكن الخوف أحكم صمام مرجله . فألجم لسانه ، ولبث صامتاً واجماً ...

واستثقل الوكيل هذا الصمت . فقال بلهجة تهديد :

— مالك لا تتكلم ؟ الظاهر أنه لا يهمك حقاً أن تقول ما تشاء !

وسرت في جسمه رعدة خوف ودهشة ، وذكر أنه نطق بهذه العبارة : « أنا لا يهمني فليفعلوا ما يشاؤون » تحت تأثير الغضب ، هل نقلت إلى الوكيل . إن لهجته ونظرته تدلان على ذلك

وخرج عن الصمت وقال بذل :

— سأكتب الطلب ...

وغادر الحجرة ، وعاد إلى مكتبه محزوناً مغيظاً وكان الزملاء يشتغلون في صمت ، فألقى عليهم نظرة نارية وتساءل : ترى من من هؤلاء الذي نقل عبارته بسرعة البرق إلى الوكيل ؟ من هو هذا الثعبان ليسحق رأسه ؟ ودنا منه علوان أفندي وهو يتظاهر بالإشفاق وفتح فمه هاماً بالكلام ، ولكنه أشار إليه بأصبعه بحركة عصبية وانفجر قائلاً :

— من فضلك لا تكلمني ! ... لا أريد أن يكلمني أحد منكم ... سأترك دياركم وعزائي أني لا أترك بها ما يستحق الأسف عليها ... بلد ملعون وأناس ملعونون !

هل يمكن أن يقع كل ذلك مصادفة ... كلا ... إنه يستشف وراء الرياء الناعم تدبيراً نذلاً ويشعر شعوراً قوياً بأن ذلك الزميل الجهنمي علوان أفندي دبر فأتقن التدبير ، وأنه انتقم لنفسه منه شر انتقام ، أما هو فقد وقع بسهولة ، ولم يقاوم الإغراء ، فراح ضحية للزملاء ولهذا البلد العجيب !

نجيب محفوظ

الفصول والغايات

معجزة الشاعر الكاتب

أبي العـــلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته ، وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هـــذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة في القاهرة .

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتي

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد
ويطلب بالجملة من إدارة مجلة « الرسالة »
ويباع في جميع المكاتب الشهيرة

رفائيـــــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر
ومن إدارة « الرسالة »
الثمن ١٢ قرشاً